كلمة أصدقاء الفقيد
للدكتور عماد الصابوني

ندرةٌ هم الذين يملكون رؤية ثاقبة يستشرفون بها معالم المستقبل، ويرسُمون في أذهانهم صورة ما ينبغي أن يكون؛ وندرةٌ هم الذين وهبوا حياتهم لتحقيق رؤيتهم، يضعون أهدافًا واضحة ومحدّدة، ويسعَون للوصول إليها بحنكة وحكمة؛ وفقيدُنا الكبير، الدكتور عبد الله واثق شهيد، كان – ولا شكّ – أحدَ هؤلاء.

تعرَّفت بالدكتور شهيد أول مرة في خريف العام ألف وتسعمئة وواحد وثمانين ١٩٨١. كان هو المديرَ العام لمركَز الدراسات والبحوث العلمية، وكنت واحدًا من مجموعة من الحائزين الجدد شهادةَ الثانوية العامة، ممّن كانوا يفكرون في دراسة التِقانات الحديثة، بدلًا من الطِب،كما يقضي التقليد السائد! اجتمع بنا الدكتور شهيد بنفسه، وراح يحدثنا عن العلم والعمل الجادّ؛ حدثنا عن جمال تعلّم الرياضيات والفيزياء والعلوم الهندسية، وعن فرص الدراسة في أفضل جامعات أوربا؛ حدثنا عن المعهدِ الذي كان فتيًّا وقت ذاك، المعهدِ العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا، وشرح لنا سبب إحداث هذا المعهد، ورسالتَه التعليميةَ في انتقاء المتفوقين ليصبحوا دارسين وباحثين في المستقبل. كان يتكلّم بهدوء وثقة، بطريقته الكَرِزْمِيَّة(*) الآسرة التي يألَفُها عارفوه. كثيرون أرضاهم كلامه، وخاضوا بفضله تلك التجربة الطويلة، التي كانت حقًا – بحلوها ومرّها – تجربة فريدة!

أمضى الدكتور شهيد عمره في خدمة العلم والبحث العلمي، ونذر نفسه لإقامة مركز الدراسات والبحوث العلمية، وتطوير البحث العلمي في سورية، الذي آمن بأنه

(*) أي: المعبِّرة عن موهبة قيادية تفرض الهيبة، من كلمة Charisma (إدارة المجمع).

أحدُ أسس بناء المجتمع الحديث، المعتمدِ على الذات. وإلى جانب تنمية الموارد التّقْنية والتّقانية اللازمة لذلك، رأى الدكتور شهيد أيضًا، بثاقب بصيرته، أهميةَ بناء الموارد البشرية من المهندسين والباحثين، ورأى أنّ ذلك لا يكون إلا بإشادة مؤسسة تعليمية عليا مميّزة، تستطيع معالجة نقائص منظومة التعليم الهندسي والتّقاني السائدة، فجاء –كما ذكرت آنفًا– بفكرة إحداث المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا، وآمن إيمانًا عميقًا بالمعهد ورسالته، على الرغم من العقبات والتحديات والاعتراضات التي واجهها وما أكثرَها. وإذا كان المعهد لم يحقق كلَّ ما كان مؤسّسُه يصبو إليه، فقد أدى – ولا مِراء – دورًا جوهريًا في رفد المركز، والعديد من مؤسّسات الدولة لاحقًا، بمن يحتاجون إليهم من مختصين، وأثبت صواب رؤية الدكتور شهيد ودقةَ تحليلِه للمشكلات واختيارِه للحلول المناسبة وتنفيذها.

كان الدكتور شهيد مديرًا ناجحًا، يرتبط اسمه بالمهابة وقوة الشخصية، وبالإخلاص والنزاهة، وبالمتابعة الحثيثة للعمل والمشروعات. وقد أفاض من سبقوني بالحديث عن مناقبه في العمل، وعن نجاحه النابع من إيمانه الدائم بما يفعل؛ وأود أن أضيف إلى ذلك اهتمامَه المستمر، على المستوى الإنساني الشخصي، بجميع العاملين في المركز، ومنهم طلابُ المعهد العال في الدُفعات الأولى على الأقل. كان يتابع الطلاب في حياتهم الدراسية، ويسأل – مع انشغاله الشديد– عن احتياجاتهم اليومية؛ بل كاد هذا الاهتمام – وإن كان من باب الحرص الأبوي – يصل أحيانًا إلى حد التدخل في الحياة الشخصية. مقولته التي طالما سمعناها منه كانت: «عليكم دروسَكم، وعلينا البقية». وثمّة قصص كثيرة عن مساعدته للعاملين والطلاب في حلّ مشكلاتهم: أحد زملائنا المتفوقين في الدُفعات الأولى لا يتمكّن من توفير الكفالة المالية الكبيرة التي كانت تضعها الإدارة شرطًا للإيفاد، فيكفله الدكتور شهيد بنفسه، بل ويبقى يتابع شؤون والديه

المسنَّين أثناء سفره؛ إحدى زميلاتنا تقطن في منطقة بعيدة ولا تملك وسيلة نقل ملائمة، فيرسل لها الدكتور شهيد سيارته لتُقِلَّها إلى المعهد جيئة وذهابًا. وكان يتتبّع بنفسه أخبار الموفدين إلى أوربا فردًا فردًا، ويسأل، لا عن نتائجهم فقط، بل عن أحوالهم المعيشية أيضًا. ومثل ذلك كثير.

لقد كان حبُّ العمل سمةً أصيلة في شخصية الدكتور شهيد، لهذا نراه بعد أن ترك مركَز الدراسات والبحوث العملية يعمل بالجِدّ والنشاط ذاته في مجمع اللغة العربية، فبقي مثابرًا على القدوم إلى مكتبه فيه حتى آخر لحظة، على الرغم من مرضه الأخير. وظلّ يعمل في حقل التعليم العالي، وظلّت أفكاره نيّرة وآراؤه سديدة حتى النهاية، فكان بذلك للكثيرين قدوة ومثلًا.

لا أظننا نودّع أبدًا أستاذنا الكبير الدكتور شهيد،فمدرستُه مستمّرة في من بقي من رفاق دربه – أطال الله عمرهم – وفي تلاميذه وطلابه. وإذا كان جثمان فقيدنا قد وُوري الثرى، فسيظل إرثُه العلمي والأخلاقي باقيًا. ومن كان مثلَه من الرجال لا يرحل، بل يدوم في ذاكرة الأمة، وفي قلوب محبيه الأوفياء.

إنه لشرف عظيم لي أن أنوب عن طلاب الدكتور عبد الله واثق شهيد وعن أصدقائه في هذا الموقف، فأقولَ هذه الكليمات القليلة التي لا تفيه حقّه. وإنّ لِشاعرِ العرب، أبي الطيب المتنبي، بيتين أجدهما من أجمل الشعر، وإخالهما يعبّران أفضل تعبير عن مآثر راحلنا العظيم:

على قَدْرِ أهْلِ العَزْم تأتي العَزائِمُ وتأتي على قَدْرِ الكِرامِ المَكارمُ

وتَعْظُمُ في عَينِ الصّغيرِ صغارُها وتَصْغُرُ في عَين العَظيمِ العَظائِمُ